فقال نعم قد يكون في كثير منها احياء

ففكر الزائر قليلاً ثم قام وقال اذاً لا فرق عندي سواء تمّ الانتخاب لبرين او لنفت ما اسعد الايام التي تزول فيها المنازعات السياسية امام نور الحقائق العلمية . والآن احقّت الكلمة ووقع النزاع الاكبر الذي شمل العالم وتناول المطالب العلمية فجاء العلم لخدمة الحكومة بكل ما لديه والدموع ملءُ عينيه لانهُ وصل الى ما وصل اليه بعد جهاد طويل قام به افضل ابناء الانسان لاشرف الغايات ولم يكن الغرض منهُ قتل الناس بل احياؤهم . ولكنهُ يخدم الحكومة عن طيب نفس لان هذه الحرب العدوانية تتهدّد العمران وبالظفر فيها تنال السلم الذي يرفع فيه العلم رأسهُ ثانيةً مفتخراً بانهُ حفظ الحرية العقلية التي هي اثمن من كل المقتنيات المادية وخضد شوكة الشر الذي يستأصل محبة الامم بعضهم لبعض ونشر الحق والمحبة في المسكونة

مصر من تسعين سنة

١

عثرت على بعض مقالات في وصف مصر واهلها وعاداتهم منذ تسعين سنة مضت للسائح الفرنسوي دي نرفال De Nerval فنميت بتعريبها لما فيها من الفائدة والفكاهة والنوادر الغريبة . وكان هذا السائح معروفاً بين قومهِ في عالم الادب لابحاثهِ في الاخلاق والهيئة الاجتماعية في القرن الماضي . وقد قال في مقدمة سياحتهِ « ما جئت مصر لاكتشف مدافن الملوك او لارى الاهرام وادرس تاريخ المصريين وآثارهم البائدة ... وما جئت لمهمة علمية او تجارية بل لأدرس اخلاق المصريين وعادتهم في هذا العصر . ولا اقدر ان اصل الى غرضي هذا كمتفرج او عابر سبيل كما يفعل غيري من السياح الذين يقيمون في الفنادق ولا يجولون في الشوارع الاّ وهم راكبو الحمير بين التراجمة والادلاء الجهلاء ليعتمدون في كتاباتهم عن الشرق والشرقيين على ظاهر ما يشاهدون او على اقاويل التراجمة الخادعة ولا يختلطون باحد من الاهالي . قصدت ان اجعل نفسي مصريًّا اجالس القوم واواكلهم واسكن بينهم واختلط بهم واتزوج منهم واحضر مجتمعاتهم الحافلة واشاهد بعيني معائشهم العائلية والمنزلية حتى اكون على ثقة مما اكتب وعلى عدّى من الحقائق . وللوصول الى ذلك تذرعت بالصبر على شظف العيش والتروي ودعة الاخلاق المقرونة بالحزم والاقدام وابتعدت عن

مظاهر الفخفخة في المعيشة والسلف الاوربي . وعمات بعد ذلك ان كل ما كتبهُ السياح من قبلي في اسفارهم عن الشرق والشرقيين والاسلام وخصوصاً عن المرأة المصرية والرق وعاداتهِ كلها روايات وهمية بعيدة عن الحقيقة »

ولقد صدق في اكثر ما كتبهُ عن مصر ورفع حجب الاوهام التي كانت شائعة وقتئذٍ في اوربا عن الشرقيين ووصف حالة المصريين عموماً مسلمين وانباطاً ومعايشهم وعاداتهم في الاعراس والمآتم والاعياد والموالد ووصف حالة الاقباط وشهد بعض اعراسهم . وذكر اخطاط مصر واحياءها واسواقها ومصنوعاتها وقهواتها حتى اسواق بيع العبيد والجواري وذكر في سياحتهِ هذه كثيرين من القواد والوزراء وبعض الافرنج من بقايا الحملة الفرنسوية الذين انتظموا في خدمة محمد علي باشا بين اطباء ومهندسين واكثرهم انتحلوا الاسلام ونفعوا مصر بعلومهم ومعارفهم . وبالاجمال جمعت اخبار سياحتهِ كثيراً من الفوائد في السياسة والتاريخ والادب والنوادر الفكاهية والغرائب المدهشة . وهاك خلاصتها :

(١) وصف القاهرة

اقلعت بنا السفينة ليوتيداس من مرفإ سيرا وبعد ثلثة ايام وصلنا الى الاسكندرية

وصلت الى بلاد العجائب والغرائب التي دفن في جوفها كنوز ملوك طيبة ومنف والتي فيها اهرام الجيزة وسقارة ومسلات هليوبوليس . وطئت ارض الفراعنة بعد ان توالت عليها احكام ممالك العالم اجمع منذ الخليقة الى الآن فاستولى عليها الملوك الرعاة والاشوريون والفرس واليونان والرومان وقياصرة الروم والعرب والاتراك والمماليك والفرنسويون الى ان استقلت الآن تحت حكم واليها محمد علي باشا

وصلت الى بلاد القبور والمدافن ولولا نيلها الفياض الجاري في وسطها لكانت صحراء قاحلة ورمالها اتوناً محرقاً . نزلت في الاسكندرية ولم امكث فيها سوى يوم واحد . وليس فيها ما يستحق الذكر سوى عمود تبي وحمامات كليوبطرة ومتنزهات المحمودية حولها الرياض الغناء تتخللها اشجار النخل الباسقة . هنالك ترى الارض حية نامية وما سواها اطلال دارسة ومفاوز قاحلة . واكثر بيوتها صغيرة حقيرة تسكنها طوائف من الصيادين والبحارة وقد بنى حاكم مصر في ساحتها قصراً فخماً غرس حولهُ الاشجار . وهناك بعض منازل لبعض القناصل والتجار الافرنج طليها لمحة من الطرز الافرنجي . واما تجارتها فقليلة لبعد المواصلات بينها وبين داخلية البلاد

وقد بدأت ترسو فيها بعض السفن بعد فتح الترعة المحمودية واما اكثر السفن والمراكب

التي تأتي من سوريا واليونان واوربا فترسو في دمياط الميناء التجاري الاكبر لداخلية البلاد بواسطة الترعة الدمياطية . ودمياط مدينة عامرة زاهرة وفيها قناصل بعض الدول وكثيرون من التجار الافرنج والسوريين

***

وفي اليوم التالي استأجرنا مركباً للسفر الى القاهرة فركبناه ووصلنا بعد يومين الى المطف حيث استأجرنا مركباً آخر اوصلنا بعد اربعة ايام الى بولاق مرفأ القاهرة وهي مدينة كبيرة عامرة على بعد ساعة منها

اما القاهرة فاحدى المدن العظمى في الشرق نساؤها محجبات ببراقع سوداء والحجاب هنا اكثر صفاقة من حجاب نساء ازمير واستانبول . فالحجاب فيهما منديل خفيف يقال له يشمك لا يخفي جمال المرأة التركية . واما في مصر بلاد الاسرار والخفايا فالحجاب صفيق نعم ان المرأة المصرية اميّة ولكنها ليست اسيرة كما هو شائع عندنا بل تسير حرة في الشوارع والمتنزهات مصحوبة بقريبة او جارة لها . واذا كانت ذات منزلة ووجاهة فتحت حراسة خصي زنجي يقال له الاغا . تركب الحمار ركبة غير مألوفة عندنا . اذ لا وجود للمركبات في مصر الاّ عند الباشا الحاكم وقنصلي انكلترا وفرنسا . ولا يجوز ان يقتني احد عربات سواهما

الليلة التي وصلت الى القاهرة كنت حزيناً منقبض الصدر فاشار عليّ ترجماني عبدالله ان اجول في شوارع المدينة راكباً حماراً ففعلت وقضينا ساعة في النزهة ولما رجعت الى منزلي تشددت عزائمي وسري عني الغم وعزمت ان اقيم في مصر ستة اشهر . وما ضرني لو اقمت هذه المدة في بلاد العجائب والغرائب الموصوفة في كتاب الف ليلة وليلة عاصمة بلاد الفراعنة وقاعدة الخلفاء الفاطميين

توغلت في احياء المدينة وجلت في شوارعها الضيقة المتعرجة يعقد عثيرها في الفضاء سحاباً قاتماً يعمي الابصار بين قوم توسدوا التراب لا تستر اجسامهم سوى اطمار بالية بين حارات ضيقة وطرق مكتظة يقطعان الكلاب الشاردة وقوافل الجمال المثقلة بالاحمال والشمس تنيب في تلك الاحياء قبل اوان غروبها لضيق الطرق والمسالك وعلو البيوت والجوامع من الجانبين

ما الذي انتظره من السياحة في هذه المدينة الكبرى وهي اكبر من باريس ورومية في تعداد سكانها الاّ ان منازلها حقيرة تخللها بعض سرايات للامراء المماليك مسورة بجدران عالية وجوامعها كثيرة تعد بالالوف ذات منائر شاهقة وجدران متينة مزخرفة لم تقوَ القرون

الخالية على ركها لمتانة بنائها . ومن يجول فيها من الافرنج يرى نفسه كأنه في حلم او انه من ابناء العصور السالفة — مدينة عظيمة تتحرك فيها الاشباح والخيالات ليس فيها دلائل الحياة . والقاهرة مؤلفة من احياء واقسام كثيرة كل قسم مفصول عن الآخر باسوار وجدر عالية وبوابات عظيمة تقفل ليلاً وعليها الحراس . واشهر بواباتها باب المتولي من الجنوب وباب الفتوح من الشمال وباب الحديد من الغرب وباب الموسكي الفاصل بين حارات القباط وداخلية المدينة . وكلها من العصور المتوسطة على عهد صلاح الدين الايوبي ذات بناء متين فخم معقود باقبية شاهقة فاذا اجتزتها المرء الى الداخل يرى منازل حقيرة ومنعطفات ودروباً غير نافذة فيسير في ظلام دامس الا ان الحمارة كانوا يحملون امامنا مصابيح من الورق (فانوس) لينيروا لنا الطريق . وكل الحوانيت تقفل بعد صلاة الغروب الا بعض قهوات بلدية تضاء بأسرجة زيتية دخانها معقود في المكان كالضباب . وهناك مقاعد من جريد النخل يجلس عليها المدخنون ويبدو كل منهم جثة اقعية وهم صامتون خاشعون كأنهم جالسون في معابد وفي بعض المنازل شرفات بارزة منطاة بميدان الجريد يقال لها « مشربيات » واما في حي الافرنج على شارع الموسكي فيمكن الاجنبي ان يسير في الليل وحده بشرط ان يحمل في يده مصباحاً

وصف الازبكية

في اليوم التالي ذهبت الى حديقة الازبكية وفيها بحيرة كبيرة او مستنقع من المياه حوله الاشجار تظلل الطريق من حرارة الشمس المحرقة وهناك بعض ابنية كبيرة متفرقة . فان المرء يمر على طريق بينها يصل الى ساحة واسعة يقال لها العتبة الخضراء ارضها مترية يثير الهواء غبارها الناعم الحار والساحة مكتظة بالناس الجالسين على التراب او المتوسدين العشباء من شيوخ وغلمان ونساء واطفال وهناك باعة الموز والبرتقال وقصب السكر والبلح والفاكهة والاطعمة . والناس يموجون في ذلك الميدان وكلهم يحملون في ايديهم عيدان القصب يمصونها وترى الحواة على اعتابهم الثعابين والافاعي والبهلوانية وحولهم المتفرجون وعلى وجوههم علامات الدهشة صامتين خشوعاً . وهناك كثيرون من فاتحي البخت وضاربي الرمل والنساء من حولهم جالسات القرفصاء ايسألنهم عن بختهن واطباء دجالون امامهم كتب مخطوطة واعجبة ذات ارقام وخطوط مترية يقصدهم ذوو الاسقام والعاهات ليلتمسوا الشفاء فيعطونهم حجباً يعلقونها في اعناقهم او حشائش يشربون منقوعها . ورأيت في خيمة الناس يمثلون روايات خرساء (بانتومين) بالاشارة الا انها معيبة والناس يتفرجون عليها بارتياح وسرور . وخيمة اخرى فيها الاعيب صغيرة بتماثيل من الورق تدعى في عرفهم « قره قوز »

(خيال الظل) فتظهر اخيلتها الصغيرة من وراء النور على القماش واصحابها من داخل يتكلمون بلسانهم . ولا تخلو هذه الالعاب من القول الفحش والحركات المخلة بالاداب . والرجال والنساء والاولاد يقهقهون ضحكاً . وفي بقعة اخرى من الساحة رأيت العاب الكلاب والقردة وقتال الديكة

وعند الساعة العاشرة رجعت الى الفندق وفي نفسي انقباض لاني لم اجد ما كنت اوّملهُ من اللهو والمسرات فرقدت على السرير ولم تكد عيناي تغمضان حتى افقت على ضجة وضوضاء وصدى اصوات مشوشة بعيدة وكانت تزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً الى ان صارت على مقربة من النزل الذي انا فيهِ . فقلت في نفسي هل انا في حلم او يقظة ثم نزلت من السرير فاذا بي ارى جموعاً كثيفة واسمع ضربات طبول وقرقعة دفوف واغاني واناشيد لا اعلم هل هي محزنة لتشييع ميت او مفرحة لزفة عرس . يتخللها وقع اقدام تأتلف على ايقاع الالحان وعزف الآلات الموسيقية . فعلمت ان القوم يرقصون وهم سائرون في الشوارع على انوار المشاعل ووراءهم رجال عراة تستر عوراتهم وزرات من الجلد وهم حاملو المزاريق يتبارزون بالسيوف والعصي . وظهرت زمرة من الغلمان يحملون اخشاباً على شكل هرم مثلث تتقد فيها الشموع ووراءهم المشدون والمغنون وضاربو الطبول . ومرت بعدهم النساء فتقدمهنَّ « الفوازي » الراقصات على الصنوج . ثم ظهرت فتاة متردية بثوب احمر موشّى بالذهب وعلى وجهها برقع ابيض مسدول الى قدميها وعلى رأسها تاج مرصع بحجارة تسطع بهاء وهي تتهادى في سيرها تيهاً ودلالاً وتستندها من تحت ابطيها امرأتان من اهلها والنساء من حولها يزغردن باصوات عالية

فتأكدت حينئذٍ انهُ موكب زفة عروس فعزمت ان اتبع سيرهُ لارى بعيني خاتمة هذه الحفلة الموصوفة في كتاب الف ليلة وليلة . فذهبت وقرعت باب غرفة ترجماني عبدالله واعلمتهُ بعزمي فنهض مذعوراً وقال ان الخطر يكون عظيماً على حياة « افرنجي نصراني » يسير بذلتهِ الاوربية وقبعتهِ الغربيَّة ليلاً وسط هؤلاء الجوع . فقلت لهُ لا بد من ذلك ولم يرض ان يتبعني الاَّ بعد ان اتشح بحرام طويل اسود يقال لهُ مشلح فوضعتهُ على كتفي لاخفي زيي الاوربي . ووضعت على رأسي كوفية وعقالاً فلم يظهر بذلك سوى وجهي ولحيتي وظهرت كاني عربي صميم

(وفي المقالة التالية وصف الاعراس المصرية واسواق الجواري وما جرى لهذا السائح من الحوادث النادرة) دبتري تقولا